مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :3 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421

تاريخ الارسال : 2019/08/20، تاريخ القبول: 2020/02/20، تاريخ النشر: 2020/04/16

أسرار الإبداع في اعتماد اللسان العربي مدخلا لعلم التفسير: مقدمة جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت310ه) نموذجا.

الأستاذ :عبد الرحيم الإسماعيلي
جامعة القرويين: دار الحديث الحسنية
المغرب

ملخص:

تروم هذه المقالة تسليط الضوء على مظاهر علوم اللسان العربي وتجلياتها عند أبي جعفر محمد بن جرير الطبري في **مقدمة تفسيره: جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، حيث انصرف النظر إلى إبراز الجانب اللغوي انسجاما مع ما توصلت إليه من عناية المؤلف بقضايا البيان العربي، وأن مدونته التفسيرية تعدُّ مصدرا مؤسِّسا وجامعا للبيان العربي في مصادره الأولى. وقد لاحظتُ غياب الاهتمام بهذه المسائل في الدراسات والأبحاث التي اهتمت **بجامع البيان**، لا سيما ما تثيره المقدمات من قضايا وإشكالات علمية، ومشاريع كبرى، حيث اخترت إفرادها بدراسة خاصة، وجعلت مقدمة التفسير مادة دسمة، لكونها فاقت جملة مقدمات كتب التفسير منهجا ومضمونا، استشرافا لدراسات عميقة تخوض في الجوانب البيانية في صلب التفسير، وإبراز أثرها في تطور المعاني، وما تعلق بذلك من أسانيد التفسير وطرقه، ومناهج المفسرين في صناعة المعنى.

وقد اقتضت طبيعة المقالة تقسيمها إلى تقديم، ومستويات أجلي من خلالها قضايا مقدمة تفسير الطبري، ثم خاتمة تجمع شتات ما تقدم.

الكلمات المفاتيح: **الأسرار، الإبداع، الطبري، اللسان، المعرب.**

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :3 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/08/20، تاريخ القبول: 2020/02/20، تاريخ النشر: 2020/04/16

تقديم:

إن العلم بالقرآن الكريم من أشرف العلوم، لهذا فقد حظي الكتاب العزيز باهتمام العلماء قديما وحديثا، حيث ألفوا المؤلفات وصنفوا المصنفات في شتى العلوم المتعلقة به؛ ومن ذلك كتب التفسير التي اهتمت ببيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، وإثبات إعجازه، ومن أهمها تفاسير الصحابة والتابعين وتابعيهم، وعلى رأسهم عبد الله بن عباس(ت68ه)، وتلميذه سعيد بن جبير (ت95ه)، ومجاهد بن جبر المكي (ت104ه)، وعكرمة مولاهم (ت105ه)...الخ؛ ومن أهم مميزات هذا العهد وخصائصه؛ أن التفسير كان يعتمد على الأثر والرواية أكثر من العقل والدراية، ولم يفسر القرآن فيه كاملا مرتبا؛ بل كان يقتصر على بيان ما غمض منه ببيان مجمله، أو كشف معنى لغوي بأخصر لفظ وأوجزه بلا توسع؛ وهو أمر طبيعي نتيجة قربهم من عهد النبوة، وسلامة ذوقهم وفصاحتهم. ثم ما لبث هذا العلم أن دون، بعد أن عرف نوعا من الاهتمام من طرف أهل الغريب، وقد اعتبرت مسائل نافع بن الأزرق (ت65ه) الإرهاصات الأولى لعلم غريب القرآن، ثم توالى التأليف في هذا الباب، فانبثقت من كتب غريب القرآن، كتب المعاني، والمجاز، والمشكل وما شابه ذلك. وقد اتسمت هاته الفترة ببيان بعض المفاهيم الغريبة والمستعصية على الفهم، إضافة إلى أنها تنتخب بعض المصطلحات فقط، ولم تكن تفسر القرآن الكريم كاملا، ثم صار التفسير كتابا من كتب الحديث، وقد عقد له البخاري كتابا، ونقل عنه تلميذه مسلم ومن تلاهما من المحدثين كعبد الرزاق الصنعاني (ت211ه) وغيرهم كثير...

ولما ضعفت الهمة حين اختلط العرب بالعجم، وفسدت السليقة، تراجع مستوى التلقي والطلب، وضاعت فهوم كثيرة، واحتاجت الأمة إلى من يبين لها أمر دينها، ويحصنها من التيارات المستحدثة في المجتمعات. فبرز في هذه المرحلة

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :3 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/08/20، تاريخ القبول: 2020/02/20، تاريخ النشر: 2020/04/16

تفسيرٌ جامع يستجيب لحاجتها، ويلبي مطامعها، ويعرض ثقافتها، ويحفظ ما ضاع من أقوال السلف ومروياتهم فكانت المدونة الموسومة ب: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت310ه) عُدَّت أجمع مدونة في تاريخ التفسير وقضاياه، حيث صارت ذاكرة المسلمين مما بوأ صاحبها منزلة سامية، فحاز لقب شيخ المفسرين.

دواعي انتخاب تفسير الطبري جامع البيان، وتجليات تلقيه وحسن استقباله:

كانت لنا وقفات مع الطبري في سنوات التحصيل في سلك (الباكالوريس) على يد أستاذنا المقتدرة الدكتورة فريدة زمرد[1] حيث أغرتنا بالبحث في هذه المصادر الأولى من التأليف. فصح العزم لخوض غمار هذا المجال. واتجه النظر إلى تفسير الطبري. وقد هالنا ما وقفنا عليه من نظر أثري، ولغوي، وفقهي رهيب، فاستصعبنا الخوض في بداية الأمر لولا ما لقيناه من عناية خاصة من أستاذتنا، حيث مكنتنا- نحن الجيل الجديد في إصلاح دار الحديث الحسنية العامرة والذين تتلمذنا عليها مدة من الزمن فاقت عشر سنوات- من مفاتيح جادة، ولجْنا من خلالها عوالم علم التفسير وأسراره، فكان التخصص الحسَنُ الذي نجد فيه متعة في البحث، والمطالعة، والتدريس.

وراء اختيارنا الكتابة في هذا الموضوع تحديدا موجبين اثنين:

[1]- من عالمات المغرب، أستاذة التفسير وعلوم القرآن بجامعة القرويين: دار الحديث الحسنية للدراسات الإسلامية العليا، ورئيسة مركز بحثي في قضايا النساء التابع لرابطة علماء المغرب، تتلمذنا على يديها مدة من الزمن، وهي المشرفة على أطروحتنا العلمية لنيل درجة الدكتوراه في علم التفسير وعلوم القرآن.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :3 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/08/20، تاريخ القبول: 2020/02/20، تاريخ النشر: 2020/04/16

الموجب الأول: تقدُّم تفسير الطبري زمنيا، إذ يقرب من العصر النبوي، ومعلوم أنه كلما اقتربنا من العهد النبوي، كلما قل الاختلاف وحسن الشرح والبيان، وكلما ابتعدنا عنه كلما كثر الاختلاف وشاع وداع.

الموجب الثاني: يعد جامع البيان، أجمع كتاب في التفسير اعتمد فيه صاحبه الطبري الآثار المروية عن السلف بطرق قد تصل إلى عشرة عن صحابي واحد كصنيعه مع ابن عباس، مع استحضار النظر العقلي السليم، المبني على التأويل باعتماده منهجا عقليا في التفسير. ولا يفهم من هذا الدعوة إل تقسيم التفسير بالمأثور أو الرأي، فذلك تقسيم لا نميل إليه ولا نستحسنه[1].

الباعث لتأليف جامع البيان عن تأويل آي القرآن:

كان الدافع عند الطبري طبيعيا لحاجة الناس إلى تفسير جامع يجمع شتات ما تقدم من مرويات الصحابة والتابعين وتابعيهم. وفي هذا الباب يقول الطبري -رحمه الله- مبينا غرضه من تأليفه الجامع: ونحن في شرح تأويله وبيان ما فيه من معانيه منشئون -إن شاء الله- كتابا مستوعبا لكل ما بالناس إليه الحاجة من علمه جامعا)[2].

من خلال تأمل النص أعلاه، يتضح لنا أن الطبري قد قصد في كتابه أن تتحقق له عناصر منهجية مهمة، ومن أهم هذه العناصر استقصاء موضوع بحثه، ألا وهو تفسير كتاب الله عز وجل، وهو هنا يركز على الآراء والأقوال

[1]- من القضايا الشائكة في تاريخ علم التفسير وتطوره، قضية تقسيم التفسير إلى تفسير بالأثر، وتفسير بالرأي، وهو تقسيم استحدث في الثقافة الإسلامية، ولعل أول من أشار إليه محمد حسين الذهبي، وقد سبقه ابن خلدون بتقسيم بديع يقرب منه، ويتفوق عليه. إلا أن تقسيم ابن البناء عندي أسلم، لجمعه بين الرواية والعقل والتأويل.

[2]- ينظر: **تفسير الطبري**،6/1.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :3 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/08/20، تاريخ القبول: 2020/02/20، تاريخ النشر: 2020/04/16

المؤيدة بأسانيدها من الآيات، والأحاديث، والآثار في كل آية من آيات القرآن الكريم، حتى يكون كتابه جامعا لهذه الأقوال والآثار، لا يكاد يترك منها شيئا.

ولبيان هذا العنصر المنهجي أيضا، يستفرغ الطبري وسعه في ثنايا تفسيره، ويتتبع في صبر وأناة وطول نفس ما جاء في تفسير كل آية من الأحاديث والآثار، وحكايات العلماء، غير غافل عما يرتبط بها من أسباب النزول، وما قد تتضمنه من الأحكام، وما جاء فيها من الكلمات الغريبة التي تحتاج إلي بيان معانيها، وما قد يتعلق بها من المباحث، كشرح المفردات، وبيان غريبها، وعرض بعض العلوم الخادمة للمعنى، كعلم القراءات التي كان الطبري حريصا علي استيفاءها، قاصدا فيما يورده من الأدلة والشواهد اللغوية والمعارف التاريخية أن **يستوعب في كتابه كل ما بالناس الحاجة إلى علمه**؛ بحيث يكون كتابه مغنيا عما سواه من الكتب الواردة في موضوعه.

لقد استوعب الطبري معاني القرآن مما احتاجه الناس في عصره. ومن ثم جاز لنا حصر جهوده في كونه نموذجا نجح في تحقيق تلك الغاية نجاحا كبيرا؛ فكتابه يفوق في هذا الجانب ما سبقه أو عاصره من كتب التفسير. يقول محمد بن علي بن أحمد الداودي (ت935ه) (**لو ادعى عالم أن يصنِّف منه عشرة كتب، كل كتاب منها يحتوي على علم مفرد، مستقصى لفعل**)[1].

إن إصدار حكم قطعي في حق تفسير جامع ضخم، لا يطلق من عالم اعتباطا هكذا، وليس فيه مبالغة وتكثير؛ ففي التفسير مادة علمية غزيرة يمكن استخراجها وتصنيفها بحسب موضوعاتها، كاللغة، والنحو، والتفسير، والفقه، وأصوله، والحديث، والأخبار، والأشعار وغيرها من أصناف المعرفة.

[1]- ينظر: **طبقات المفسرين**، لشمس الدين محمد بن علي بن احمد الداودي، (ت935ه) تحقيق: علي محمد عمر، نشر مركز تحقيق التراث بدار الكتب، مكتبة وهبة، (1972م)، ج2/، 444.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :3 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/08/20، تاريخ القبول: 2020/02/20، تاريخ النشر: 2020/04/16

لأن الواقع العلمي الذي انتشر فيه تفسير الطبري دليل قوي على تأكيد هذه الدعوى؛ بل أكثر من ذلك فهناك من اقتصر على المقدمة واستخرج منها علما مستقلا بذاته[1].

الكفاية النظرية للتأسيس لعلوم اللسان العربي:

ذهب ابن خلدون (ت808هـ) إلى أن ملكة اللسان العربي كانت من أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد، لكن بمجيء الإسلام ومخالطة العرب للعجم، فسدت تلك الملكة بما ألقي إليها مما يغايرها واستمر ذلك الفساد حتى تسرب إلى موضوعات الألفاظ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم.

وبادر أئمة اللسان إلى إنقاذ ملكتهم العربية من الضياع، فوضعوا أسس علم النحو وقيدوها بالكتابة، وكان أول من كتب فيها أبو الأسود الدؤلي(ت69هـ)، وهبوا أيضا إلى حفظ الموضوعات اللغوية بإملائها في الدواوين، وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ).

إن العلم بمعاني القرآن الكريم ومقاصده، والوقوف على أسراره ومظاهر إعجازه، لا يتأتى إلا لمن حاز قصب السبق في معرفة دقائق اللغة العربية وأسراها.

ولا ينبغي لأحد أن يقدم على تفسير كتاب الله تعالى، مالم تتحقق فيه أهلية التفسير التي تقوم على أصول علمية ومعرفية، من أهمها: **معرفة اللسان العربي** التي تقتضي الوقوف على المعاني التي وضعت للألفاظ والهيئات والصيغ الواردة على معانيها المختلفة (التصريف)، والفروع المأخوذة منها

[1]- ينظر: **الطبري وحديث الأحرف السبعة**، لسعاد سيد أحمد علي.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :3 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/08/20، تاريخ القبول: 2020/02/20، تاريخ النشر: 2020/04/16

(الاشتقاق) وكيفية التراكيب بحسب الإعراب (النحو) وما يتعلق بفصاحة الألفاظ والتراكيب وطرق تأدية مقاصدها (البلاغة.

وهنا تقتضي طبيعة البحث في علم التفسير وعلوم العربية أن يتسلح الباحث بعلوم الآلة. فقد أصبح واجبا على كل مشتغل بالقرآن الكريم أن يكون محيطا بعلوم اللسان العربي إحاطة شاملة، تمكنه من بيان أوجه إعرابه، وتوضيح الغريب من ألفاظه، والكشف عن أساليب فصاحته وبيانه.

إن المطلع على عصر الإمام الطبري سياسيا واجتماعيا وفكريا، والمراجع لترجمته أيضا وما حلاه به مترجموه، يجده إماما في كل العلوم؛ ومن ثم فمن الطبيعي أن يستثمر معارفه، وأن يستعرض فكره وثقافته الواسعة في تفسير كتاب الله تعالى. لأن القرآن الكريم، هو المجال الرَّحْبُ لتلقي مختلف المعارف والعلوم شريطة مراعاة ضوابط التفسير وقواعده وأصوله ابتغاء حسن تنزيلها.

1.إدراك التفسير من جهة اللسان:

يقدم الطبري في مقدمة تفسيره نصا مؤطرا لهذا الضابط فيقول: (وأوضحهم برهانا فيما ترجم وبين من ذلك ما كان مدركا علمه من جهة اللسان، إما بالشواهد من أشعارهم السائرة، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة كائنا من كان ذلك المتأول والمفسر)[1].

إن النص المؤسس لعلوم اللسان عند الطبري، يحيل الباحث إلى الرجوع إلى **اللسان الذي نزل به القرآن** على نبيه صلي الله عليه وسلم، لبيان معاني الآي، وتفسيره بالمعاني المعروفة على عهد الصحابة، والتمكن من هذه الأدوات التي هي بمثابة آليات يحتاج إليها المفسر. فقد صرح أبو عبيدة معمر بن المثنى

[1]- ينظر: مقدمة **جامع البيان**، الطبري،93/1.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :3 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/08/20، تاريخ القبول: 2020/02/20، تاريخ النشر: 2020/04/16

(ت210هـ) بنزول القرآن بلسان عربي مبين، ثم ربط ذلك بانتخاب آيات قرآنية تبرز نزول القرآن بلسان عربي مبين، فقال: **(إنما أنزل القرآن بلسان عربي، وتصديق ذلك في آية** من القرآن، وفي آية أخرى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه). فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي صلي الله عليه وسلم أن يسألوا عن معانيه لأنهم كانوا **عرب الألسن...**، وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب ومن الغريب والمعاني)[1]. وروي عن مالك (ت179هـ) تشدده في من لا يتلقى علوم العربية، ذلك قوله: (لأوتي برجل غير عالم بالعربية إلا جعلته نكالا)[2]. ومن هنا يجب على المفسر أن يحيط خبرا بعلوم اللسان العربي، لأن النص القرآني كلام الله تعالى، مما اقتضى إدراك **المنطق اللغوي**[3] **العربي واستيعابه** حتى لا يتبين المفسر معاني الآيات، وخاصة الألفاظ الغريبة من غير وقوف على معانيها عند أهلها[4].

وربطا بالموضوع الذي نحن بصدد دراسته، نجد الطبري ضمن مقدمته جملة هذه العلوم وهي تظهر بجلاء في ثنايا التفسير. وما يفيد اعتماده علمي المعاني والبيان القضايا اللغوية الواردة في المقدمة.

ولا يفهم من الذي أشرت إليه الإلمام بدقائق اللسان العربي والإحاطة به، فذلك لن يحصل لأي عالم كان مهما بلغ مبلغه من العلم؛ لأن العربية التي نزل بها القرآن من أوسع اللغات، من حيث المفردات، والتراكيب، والأساليب. وقد

[1]- ينظر: **مجاز القرآن** لأبي عبيدة تحقيق: محمد فؤاد سزكين، الطبعة الثانية، (1401هـ)، نشر، مؤسسة الرسالة، بيروت،8/1.

[2]- **نفسه.**

[3]- سيأتي بيان المنطق اللغوي عند الطبري حسب ما توصلت إليه.

[4]- ينظر: **التبيان** للإمام النووي، الطبعة الأولي، (1408هـ)، دار الإحسان القاهرة، ص، 241 بتصرف.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :3 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/08/20، تاريخ القبول: 2020/02/20، تاريخ النشر: 2020/04/16

قرر الشافعي (ت204ه) قديما قاعدة عظيمة بقوله: **(لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان بغير نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها حتى لا يكون فيها من يعرفه)**[1].

وورد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- ما كنت ما أدري ما فاطر حتى أتاني أعربيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا افتطرتها، وقال الآخر: أنا ابتدأتها[2]. مما يفيد أن ابن عباس الذي سمح له النبي الكريم بتفسير القرآن العظيم، وأنه يحظى بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم، ويعرف الرسول قدره ومبلغه من العلم غابت عنه دلالات الكلم القرآني فكيف بمن جاء بعده لما ضعفت الهمم وتراجعت؟.

ذكر الطبري أن من أوجه تأويل القرآن من كان **علمه عند أهل اللسان الذي** نزل به القرآن، لذلك استعان كثيرا بالتأويل باللغة، وخاصة عند ترجيح القراءات وتوجيه بعضها. وقد مكنه من ذلك غزارة علمه بالعربية، ومعرفته بدلالات الألفاظ وتراكيبها. لهذا فالأمر في اعتقادي يعود إلى استفادته الكبيرة في هذا الباب ممن سبقوه أمثال أبو عبيدة، وسعيد بن مسعدة الأخفش، وثعلب، وهم (أصحاب المعاني). ومن ثم نجده يوجه انتقادات عنيفة لأهل اللغة ومنهم أبو عبيدة، وغالبا لا يسميه، حتى إنه في بعض الأحيان يصفه بالغباء. وللتدليل على ذلك أسوق نموذج يوضح هاته المسألة ويقويها.

مثلا في تأويل قوله تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)، يقول أبو جعفر الطبري: (زعم بعض المنسوبين إلى العلم بلغات العرب من أهل البصرة أن تأويل قوله: (وإذ قال ربك)، وقال ربك، وأن: (إذ)

[1]- ينظر: **الرسالة**، تحقيق: أحمد شاكر، ص42، الفقرة 138، ط دار التراث.
[2]- ينظر: **البرهان في علوم القرآن**، لبدر الدين الزركشي،1/ 296، ط، دار الفكر.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :3 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/08/20، تاريخ القبول: 2020/02/20، تاريخ النشر: 2020/04/16

من الحروف الزائدة وأن معناها الحذف... والأمر في ذلك بخلاف ما قال: وذلك أن: (إذ) حرف يأتي بمعنى الجزاء، ويدل على مجهول من الوقت. وغير جائز إبطال حرف كان دليلا على معنى في الكلام)[1]. هكذا يظهر أن الطبري يتشدد في إلغاء حرف من القرآن الكريم، لاسيما أن إذ لها معنى فكيف سمحت ظروف أبي عبيدة بجعله إذ زائدة في القرآن الكريم؟[2].

ومن العلماء اللغويين الذين رد الطبري بعض فهومهم للآية حسب ما وقفت عليه من علماء الكوفة، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت207هـ)، صاحب **معاني القرآن**، وذلك لمخالفته تأويل السلف من الصحابة والتابعين وإجماعهم في تفسيره: (لاغية) في قوله تعالى: (لا تسمع فيها لاغية)[3]. بحالفة على الكذب. وفي ذلك يصرح الطبري فيقول: (لهذا الذي قاله مذهب ووجه، لولا أن أهل التأويل من **الصحابة والتابعين** على خلافه، وغير جائز لأحد خلافهم فيما كانوا عليه مجمعين)[4]. هكذا يظهر من النموذجين أعلاه أن الطبري رد قول أهل اللغة من البصرة، والكوفة، مما أبان لنا أن الطبري يدور مع الحق حيث دار، ولا يتعصب لمذهب لغوي على آخر، وقد ظهر فيما ظهر أن المذهب النحوي للطبري هو مذهب الكوفيين.

يستدل الطبري كثيرا بأشعار العرب ومنطقها، لذلك اعتبره المستشرق الألماني جولد تسيهر أول من رجع إلى شواهد الشعر العربي القديم بشكل واسع، متأثرا بما روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في بيان غريب القرآن.

---

[1]- ينظر: **تفسير الطبري**، 103/1 -104.

[2]- موضوع الزوائد في القرآن الكريم، موضوع متشعب ألفت فيه مؤلفات منذ قرون عديدة لهذا ننبه إلى بعضها ونكتفي بما ذكره الطبري في الباب.

[3]- سورة الغاشية 1.

[4]- ينظر: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، الطبري، ط. الحلبي، 30/ 160.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :3 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/08/20، تاريخ القبول: 2020/02/20، تاريخ النشر: 2020/04/16

وبناء عليه فما قدمه الطبري من **المعالجات اللغوية** يعد كنزا لا تقدر نفاسته[1]. لكن اللغة عنده يجب أن تكون وسيلة لا هدفا، وتابعة لا متبوعة، يشرح ذلك محمد حسين الذهبي فيجعل **البحوث اللغوية** التي عالجها الطبري في تفسيره ليست مقصودة لذاتها، وإنما كانت وسيلة للتفسير[2]. وفي تفسيره من الشواهد ما يقيم أكثر من دليل على تعضيده الرواية بما جاء في الشعر العربي القديم، يقول الطبري: (وبمثل ما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسماء سور القرآن التي ذكرت، جاء شعر الشعراء، فقال بعضهم:

حلفت بالسبع اللواتي طولت وبمئين بعدها قد أمئيت
وبمثان ثنيت فكررتـ وبالطواسين التي ثلثت
وبالحواميم التي قد سبعت وبالمفصل اللواتي فصلت

وهذه الأبيات تدل على صحة التأويل الذي تأولناه في هذه الأسماء[3].

يتأكد من تأمل المثال أعلاه، تأثر الطبري بمنهج ابن عباس -رضي الله عنهما- في استخدامه للشعر العربي، خاصة في أجوبته على مسائل ابن الأزق، وقد وقفت مليا على تجليات ذلك عند ابن عطية في **المحرر الوجيز** فقد أجاد وأفاد في استنباط معالم ابن عباس في الاستشهاد بالشعر العربي[4].

[1]- ينظر: **مذاهب التفسير الإسلامي**، ص114-115 (بتصرف).
[2]- ينظر: **التفسير والمفسرون**، /217 بتصرف.
[3]- ينظر: **تفسير الطبري**، 1/ 103-104.
[4]- توصلنا إلى هاته النتيجة في سياق آخر عند دراستنا: **لمناهج المفسرين بالغرب الإسلامي في استنباط المعنى، بحث في مستويات علوم اللغة.** وهي دراسة تقع في ثلاث مائة صفحة أسأل الله عز وجل أن يعجل بنشره.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :3 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/08/20، تاريخ القبول: 2020/02/20، تاريخ النشر: 2020/04/16

1.المنطق اللغوي وعلاقته باللسان العربي:

بعد بحث طويل وشاق في كتب التفسير وعلوم القرآن، وكتب اللغة وفقهها، والتردد على طائفة من العلماء، وأحيانا أضطر إلى مهاتفة بعضهم من أجل بيان المقصود **بالمنطق اللغوي** عند الطبري. فقد عانيت عناء شديدا في فهم دلالته وواصلت الليل بالنهار، دون أن أستريح حين تزامن ذلك مع نهاية الفصل السابع، وداهمني الوقت فاستخرت الله تعالى إلى أن جاد الله علي بما دونته ولا أدر كيف توصلت إليه. لأن الأدوات المنهجية التي حصلتها في تلك الرحلة لم تكن كافية لاستيعاب كثير من القضايا مقارنة مع الطموح العلمي الذي يسكنني.

قلت؛ ولتبرير هذا الفهم نعود إلى مقدمة تفسير الطبري، فننتخب نصا صريحا يبين اعتماد الطبري المنطق اللغوي في التفسير، ذلك قوله: (وأوضحهم برهانا فيما ترجم وبين من ذلك ما كان مدركا علمه من **جهة اللسان، إما بالشواهد من أشعارهم السائرة، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة كائنا** من كان ذلك المتأول والمفسر)[1]. هكذا يظهر أن الطبري يعتمد شواهد العرب من كلامها شعرها، ومنطقها، ولغاتها المستفيضة. فكل مستوى من تلكم المستويات مقصود عند الطبري، والواو لمقتضى التخيير ولس الترتيب. فالمستفيض كما درج عند أهل المصطلح يفوق المشهور، وهو دون المتواتر وهو اختيار دقيق، يبين الصرامة العلمية والمنهجية التي سلكها الطبري. ثم حدد ضوابطه المتبعة في بيان معاني الآي من خلال التصريح بهذا النص النفيس.

المنطق اللغوي:

[1]- ينظر: **تفسير الطبري**، 93/1.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :3 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/08/20، تاريخ القبول: 2020/02/20، تاريخ النشر: 2020/04/16

وأقصد بالمنطق اللغوي المعايير التي وضعها الطبري لتفسير القرآن على أساس من منطق اللغة وروحها في البيان والتعبير، وإن اختلفت هذه المعايير من نحو وتراكيب وتصريف ومعجم، وقد استمده الإمام الطبري من كلام العرب، ومن عرف استعمالها، ومن عادتها في الكلام والتخاطب ومعهودها في البيان، وهو أصل من الأصول التي تحكم المنهج اللغوي في وضع القواعد، ويعتمد بالأساس على عناصر أساسية:

-عنصر **الخفة:** ونجد أسسه عند سيبويه، وبعده ابن جني، وفيه ينزع المفسر إلى نوع من الخفة في الكلام والإلقاء.

-عنصر **الصواب:** وهو الذي يعتمد الصحة في التراكيب اللغوية التي يستعملها المتكلم في خطابه، وهذا يؤدي إلى عنصر أخر وهو:

- **عنصر اللبس:** وفيه إشارة إلى نزول القرآن الكريم بلسان العرب، فكما يعتبر المنطق اللغوي الطريق الأول والأساس إلى فهم آي القرآن الكريم فهو أمر زائد على اللسان العربي، ومن ثم فلا يمكن لأي كان أن يفسر القرآن دون اعتماد هذه الأداة أولا، فلا نصل إلى معنى جزئي في النص فقهيا كان أو شرعيا، أو أصوليا، إلا من منطلق علوم اللغة. وهذا ما عليه جمهور المفسرين وغيرهم...ولذلك كان أول ما يجب وما: (يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن، العلوم اللفظية) [1].

ويبدو أن الطبري لم يخرج عن هذه القاعدة المعتمدة، إذ يجعل **المنطق اللغوي** أساسا مكينا فيه مادام لم يقم هناك أي تعارض مطلق أو نسبي بينه وبين التفاسير المأثورة، فان حصل هذا التعارض، فإن الطبري يعطي الأولوية المطلقة للتفسير بالمأثور، وهذا محل خلاف بينه وبين المفسرين الذين اتجهوا

[1]- ينظر: **دراسة الطبري للمعنى من خلال تفسيره جامع البيان** محمد المالكي، ص 122 بتصرف.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :3 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/08/20، تاريخ القبول: 2020/02/20، تاريخ النشر: 2020/04/16

اتجاها لغويا محضا في بيان مجازي القرآن الكريم ومعانيه، كأبي عبيدة، والفراء، والأخفش، والزجاج وأضرابهم من اللغويين الذين كانوا في الغالب يفسرون النص القرآني انطلاقا **من معطياته اللغوية المحضة، أي جعل النص القرآني نصا لغويا بالأساس** دون الاعتماد بشكل أساسي على مراعاة سياقه التاريخي، وقداسته. ولعل لعناية الطبري باللغة أسباب وعوامل عدة.

موجبات عناية الطبري باللغة واعتماده اللسان العربي:

يمكن الحديث عن الأسباب والعوامل التي جعلت الطبري يعتمد علوم اللغة أداة رئيسة في التفسير بشرط ألا تتعارض مع التفسير المأثور، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح، يمكن إرجاع هذه الأسباب إلى أن القرآن أولا وقبل كل شيء **نص لغوي** جاء على لغة العرب ومقتضيات التفكير والتعبير لديها، ومن ثم فقد كان التفسير منذ العهود الأولى يستمد حجيته ومشروعيته من الاعتماد على اللغة، كما كان الشأن عند الصحابي الجليل عبد الله بن عباس الذي كان أول المفسرين اهتماما باللغة وبكلام العرب وأشعارها[1]. وكان أول من أذن له النبي الكريم، وسمح له بمباشرة عملية التفسير ذلك ما نستشفه من قول النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل).

ثم هناك عامل آخر جعل الطبري يعتمد اللغة وكلام العرب، وهو عامل أساس وهو ما تعلق بالخلفيات المذهبية والفكرية التي انطلق منها كمفسر[2].

[1] - **نفسه**، ص 123.

[2] - **نفسه**، ص 123.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :3 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/08/20، تاريخ القبول: 2020/02/20، تاريخ النشر: 2020/04/16

ومن ثم وظف الطبري اللغة أداة رئيسة للرد على مخالفيه ممن يبالغون في الأخذ بالمجاز في تفسيرهم للآيات القرآنية الكريمة، وخاصة ما يتعلق بالذات الإلهية.

يقول محمد المالكي: (إن المفسرين من أهل السنة كانوا أكثر إلحاحا من غيرهم على وجوب الأخذ بالدليل اللغوي في التفسير، وبذلك أصبحت اللغة عندهم أداة فعالة في مواجهة خصومهم من أهل الباطن وأهل البدع... يفعلون ذلك خدمة لعقائدهم وأهدافهم)[1]. بناء على ما تقدم، يمكن القول إن هناك خلفية سنية هي التي كانت توجه الطبري نحو اعتماد **اللسان العربي والمنطق اللغوي** أصلا في التفسير، فضلا عن عوامل أخرى[2].

قضايا عائدة إلى اللسان العربي:

1. اتفاق معاني آي القرآن مع منطق اللسان العربي: يدل على هذا العنوان عنوان فصل عقده الطبري في مقدمته، إذ خصه لاتفاق آي القرآن مع منطق العرب في الكلام، مع تميز معاني القرآن الكريم سائر الكلام، ذلك عنوان الطبري: (**القول في البيان عن اتفاق معاني آي القرآن ومعاني منطق من نزل بلسانه القرآن** من وجه البيان والدلالة على أن ذلك من الله تعالى ذكره هو الحكمة البالغة، مع الإبانة عن فضل المعنى الذي به باين القرآن سائر الكلام)[3]. ففي هذا الفصل، يرى الطبري أن القرآن موافق لمنطق العرب في بعض أساليبها، يقول أبو جعفر: (فإذ كان ذلك كذلك؛ فبيّنٌ إذ كان موجودا في كلام العرب الإيجاز والاختصار، والاجتزاء بالإخفاء من الإظهار،

[1]- ينظر: المرجع السابق، ص 123.
[2]- **نفسه**، ص 124.
[3]- ينظر: **جامع البيان**، الطبري، 12/1.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :3 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/08/20، تاريخ القبول: 2020/02/20، تاريخ النشر: 2020/04/16

وبالقلة من الإكثار، في بعض الأحوال، واستعمال الإطالة والإكثار، والترداد والتكرار، وإظهار المعاني بالأسماء، دون الكناية عنها، والإسراف في بعض الأوقات، والخبر عن الخاص في المراد بالعام الظاهر، وعن الكناية والمراد منه المصرح، وعن الصفة والمراد الموصوف، وعن الموصوف والمراد الصفة، وتقديم ما هو في المعنى مؤخر، وتأخير ما هو في المعنى مقدم، والاكتفاء ببعض من بعض، وبما يظهر عما يحذف، وإظهار ما حظه الحذف أن يكون ما في كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من ذلك، في كل ذلك له نظيرا، وله مثلا وشبيها) [1] وهي نتيجة مهد لها الطبري بمقدمات متناسقة يمكن بسطها في ما يلي:

- **وظيفة اللغة:** هي هبة ربانية حسب الطبري، من أجل البيان عن المراد.

- **مراتب البيان:** تتدرج مراتب البيان وطبقات البلاغة حسب المتكلمين، مؤكدا أن فضل أهل البيان على غيرهم يكمن في اقتدارهم على البيان عن أغراضهم. واعتبر الطبري في علو درجة البيان ضابطين: **أ. حاجة المبين عن نفسه ومراده.**

ب. قرب الكلام من فهم السامع.

إن القرآن كلام الله أعجز العباد لأنه أبلغ، فكان معجزة للرسول صلى الله عليه وسلم، ومن ثم عقد الطبري مشابهة بين معجزة الكلام (القرآن)، ومعجزة الإسراء والمعراج، ذلك أن العباد لا يقدرون على بيان القرآن، وإن كانوا قادرين على البيان في مرتبة أدنى منه، مثلما أنهم غير قادرين على قطع مسافة الإسراء كاملة في ليلة واحدة، وإن كانوا قادرين على قطع مسافة قليلة منها.

[1]- نفسه، 1/ 12.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :3 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/08/20، تاريخ القبول: 2020/02/20، تاريخ النشر: 2020/04/16

كلام الله أفضل من كلام العباد؛ لأن الله عز وجل أفضل من العباد.

كلام الله أقرب إلى فهم المخاطب لتنزيهه عن العبث، لأن الرسالة التي لا تفهم لا فائدة منها، ولتحقيق ضابط القرب من الفهم لابد من نزوله على لسان القوم المخاطبين به (العرب)؛ لذلك وجب القول بموافقة القرآن لكلام العرب. وهنا تعترض سبيلنا قضية شائكة عند الطبري، وله فيها رأي سديد ألا وهي قضية وقوع المعرب في القرآن وفي اللغة العربية، فما رأي الطبري في هذا الباب؟

2.وجود المعرب في القرآن الكريم: يضع الطبري قولا جامعا مؤطِّراً للباب نحو قوله: (**القول في البيان عن الأحرف التي اتفقت فيها ألفاظ العرب وألفاظ غيرها من بعض أجناس الأمم**)[1]. والنص يحيلنا على القضية السابقة، حيث أقر الطبري موافقة القرآن لكلام العرب وهي نتيجة مهد بها الرجل - رحمه الله- إلى القضية الثانية هنا ليناقش بها مسألة وجود المعرب في القرآن الكريم، فذهب إلى القول بعدم وجوده في اللغة أصلا استعدادا لنفيه وإبعاده من القرآن الكريم، وهي نتيجة تؤدي إليها هاته المقدمة، فهل راعى الطبري هاته المقدمة المنطقية أم لا؟

وأما الألفاظ التي عدت من المعربات، فيعتبرها الطبري مفردات حصل فيها اتفاق بين لغات أجناس الأمم (العربية، والفارسية...)، ولا خلاف بين رأي الطبري هذا المنكِر للمعرَّب والأخبار التي تتضمن أمثلة من الألفاظ المعتبرة من قبيل المعرب: (ناشئة،كفلين، أوبي...)؛ لأن هذه الأخبار لا تنفي كون هذه الأحرف كلاما للعرب، أو منطقا قبل نزول القرآن.

[1]- ينظر: **تفسير الطبري**، ج11/1.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :3 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/08/20، تاريخ القبول: 2020/02/20، تاريخ النشر: 2020/04/16

وإذا كان الطبري لا يستنكر اتفاق جميع أجناس الأمم المختلفة الألسن في الكلام، فمن الأولى أن لا يستنكر اتفاق جنسين منها. ومن ذلك (العربية، الفارسية)، وليست العربية أصلا على غيرها، ولا العكس، وعلى مدعي ذلك الاستدلال بخبر يقطع العذر صحته. وعليه؛ يمكن أن نتساءل فنقول: كيف يمكن أن يكون القرآن موافقا لمنطق العرب، وهو متضمن لألفاظ ليس أصلها عربية (معربة) وعليه؛ فبعد أن أقر الطبري في القضية الأولى موافقة القرآن للسان العربي، خص القضية الثانية بمسألة المعرب؛ ليؤكد عدم وجوده في اللغة أصلا. ويمكن في نظري اعتبار هذا حلا للإشكال، ومن ثم فنتيجة القضية الثانية خادمة للقضية الأولى، إذ أن إنكار المعرب تأكيد على عربية القرآن وهو إبداع جميل.

خاتمة: يتحصل مما تقدم أن الطبري كان مبدعا في اعتماد اللسان العربي، ووضع ضوابط صارمة جعلها مدخلا لبيان معاني كتاب الله المجيد. فقد تبين من خلال الشواهد التي استدعيتها للنظر والتأمل أن الرجل يسعى إلى حسم ما تعلق باللسان العربي، ومن تجليات ذلك عدم تساهله في تتبع من غلب على ظنه معنى يخالف عادة العرب في كلامها، من ذلك نقده الشديد لأبي عبيدة معمر بن المثنى، وأبو زكريا يحيى بن زياد الفراء. لهذا فجامع البيان مجال رحب لمن يريد اكتشاف دقة اللسان العربي وتجلياته، والتعرف على أسرار الإبداع عند المفسرين المتقدمين.

المجلد :7 / العدد :3 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421

تاريخ الارسال : 2019/08/20، تاريخ القبول: 2020/02/20، تاريخ النشر: 2020/04/16

المصادر والمراجع:

البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين الزركشي، طبعة: دار الفكر.

التبيان للإمام النووي، الطبعة الأولى، (1408ه)، نشر: دار الإحسان القاهرة.

التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، نشر: مكتبة وهبة (د.ت).

جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، طبعة الحلبي (د.ت).

دراسة الطبري للمعنى من خلال تفسيره جامع البيان محمد المالكي، الطبعة الأولى، نشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، سنة: (1417ه1996م).

الرسالة، الإمام الشافعي، تحقيق: أحمد شاكر، الطبعة الأولى، نشر: دار التراث.

الطبري وحديث الأحرف السبعة، لسعاد سيد أحمد علي.

طبقات المفسرين، لشمس الدين محمد بن علي بن احمد الداودي، (ت935ه) تحقيق: علي محمد عمر، نشر مركز تحقيق التراث بدار الكتب، مكتبة وهبة، (1972م).

مجاز القرآن لأبي عبيدة تحقيق: محمد فؤاد سزكين، الطبعة الثانية، (1401ه)، نشر، مؤسسة الرسالة، بيروت.

مذاهب التفسير الإسلامي، اجنتس جولد تسيهر، نشر: مكتبة الخانجي بمصر (د.ت).

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :3 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421

تاريخ الارسال : 2019/08/20، تاريخ القبول: 2020/02/20، تاريخ النشر: 2020/04/16